الفصل الأول :
شعراء من التراث

١ - أبو فراس الحمداني

٢ - ابن النبيه المصرى

٣ - الشريف الرضي

٤ - عمر الخيام

٥ - العباس بن الأحنف

٦ - بكر بن النطاح

٧ - صفي الدين الحلي

١ أبو فراس الحمداني..

«أراك عصي الدمع»

تعود علاقة سيدة القصيدة العربية كوكب الشرق أم كلثوم بالشاعر أبو فراس الحمدانى إلى أوائل مشوارها الفنى الذى بدأته جديًا منذ عام ١٩٢٦ أو ربما قبل هذا التاريخ بسنوات أو أشهر قليلة.. على الرغم من أنها كانت وخلال هذه الفترة ما زالت تحبو داخل شارع الفن الراقى، نظراً لإمكانياتها الضعيفة لحناً وجمهوراً.

ويرجع الفضل الأول فى إتقان أم كلثوم لغناء هذه القصيدة الصعبة ولغيرها من القصائد.. إلى الملحن الكبير الشيخ أبو العلا محمد.. الذى كان قد تغنى هو الآخر بتلك القصيدة من قبل أن تغنيها أم كلثوم .. رغم أنها ليست من ألحانه، بل لحنها له الفنان الموسيقار عبده الحامولى!!!

ومما قيل فى هذا السياق أن الشيخ أبو العلا كان قد سجل أيضاً هذه القصيدة بصوته على اسطوانات كان يتم تداولها من قبل أن تسجل أم كلثوم نفس القصيدة بصوتها على اسطوانات أيضاً.

وبطبيعة الحال، فلولا إتقان أم كلثوم ـ تلك الفتاة الريفية التى كانت قد قدمت لتوها من قريتها بمحافظة الدقهلية ـ لفن غناء القصائد، لما سمح لها أصحاب شركات الفونوغراف بتسجيل هذه القصيدة المشهورة بصوتها فى هذه المرحلة المبكرة من حياتها الفنية!

ولقد أشارت كل كتب تاريخ الأغنية أن كوكب الشرق أم كلثوم قد غنت قصيدة أبو فراس الحمدانى .. «أراك عصى الدمع» لأول مرة فى عام ١٩٢٦ وهى من تلحين كما ذكرنا عبده الحامولى .. كما سجلتها فى نفس التوقيت على اسطوانة تابعة لشركة أوديون للفونوغراف.

ونظراً للنجاح الذى لاقته أم كلثوم فى غنائها لهذه القصيدة ، ولتأكيد دورها كذلك فى مجال الدعوة لشعر الفصحى الراقى، فقد حرصت على أن تغنى قصيدة «أراك عصى الدمع» مرة ثانية .. وذلك فى عام ١٩٤٤ وبتلحين جديد وضعه الشيخ زكريا أحمد ..إلا أنها لم تسجلها هذه المرة على اسطوانات.

وفى يوم الخميس الموافق ٣ديسمبر من عام ١٩٦٤ .. أعادت كوكب الشرق أم كلثوم غناء هذه القصيدة للمرة الثالثة وبتلحين جديد أيضاً للموسيقار رياض السنباطى، بعد أن أضافت إليها أبيات أخرى.

***

وفى كتاب «النصوص الكاملة لأعمال أم كلثوم»، والذى وضعته اللجنة الموسيقية العليا من بعد رحيلها، تصدرت قصيدة «أراك عصى الدمع» لأبى فراس الحمدانى هذا الكتاب مع إشارة لتوقيت غناء هذه القصيدة فى المرات الثلاثة السابق الإشارة إليها .. وكذلك الإشارة للأبيات التى غنتها أم كلثوم من هذه القصيدة .. لأول مرة فى عام ١٩٢٦ وكان عددها ستة أبيات فقط هى:

أراك عصى الدمع شيمتك الصبر
أما للهوى نهى عليك ولا أمر
نعم أنا مشتاق وعندى لوعة
ولكن مثلى لا يذاع له سر
إذا الليل أضوانى بسطت يد الهوى
وأذللت دمعًا من خلائه الكبر
تكاد تضىء النار بين جوانحى
إذا هى أذكتها الصبابة والفكر
معللتى بالوصل والموت دونه
إذا مت ظمآنًا فلا نزل القطر
وقالت لقد أذرى بك الدهر بعدنا
فقلت معاذ الله بل أنت لا الدهر

وفى عام ١٩٦٤، أى بعد مرور أكثر من خمسة وثلاثين عامآ .. زادت أم كلثوم على هذه الأبيات الستة ثلاثة أبيات أخرى، وقد أضافتهم بعد البيت الخامس وفق الترتيب العام للقصيدة .. وهذه الأبيات الثلاثة هى:

وفيت وفى بعض الوفاء مذلة
لفاتنة فى الحى شيمتها الغدر

تسائلني من أنت وهي عليمة
وهل لشاب مثلي على حاله نكر
فقلت كما شاءت وشاء لها الهوى
فتيلك!، قالت، أيهم فهم كثر

***

وعندما رجعنا إلى ديوان أبي فراس الحمداني والذى تضمن هذه القصيدة وجدنا أن هناك بعض الملاحظات المتعلقة بالأغنية.. رأينا من الضرورى التنويه عنها .. ما دمنا نتحدث عن كل من أم كلثوم وأبو فراس، وأولى هذه الملاحظات تتعلق بعنوان القصيدة .. إذ حذفت أم كلثوم الشطر الثانى من عنوانها الرئيسى وهو « شيمتك الصبر» مكتفية بالشطر الأول من العنوان وهو «أراك عصى الدمع» وربما يكون ذلك راجعاً فى الأساس للسهولة التى كانت تنشدها كوكب الشرق عندما يعاد إذاعة هذه القصيدة بعد أن تشدو بها، أو قد يكون ذلك قد تم بدون علمها .. إما من جانب الملحن أو المذيع الذى تولى تقديمها حين كانت تغنيها.

وثانى هذه الملاحظات يتعلق بأبيات القصيدة نفسها .. إذ تبين لنا أن أم كلثوم لم تغن فقط سوى ستة أبيات من مجموع الأبيات البالغ عددها ٥٤ بيتاً !.

ليس هذا فقط .. بل أن من بين هذه الأبيات الستة خمسة أبيات جاءوا مرتبين وفق الترتيب الذى ارتضاه أبو فراس حين دون هذه القصيدة وأما البيت السادس من الأبيات التى غنتها أم كلثوم فجاء موقعه الثامن عشر !! كما استبدلت فيه كوكب الشرق حرف الواو بحرف الفاء!

***

وحتى عندما أرادت أم كلثوم فى عام ١٩٦٤ ، أن تعيد الشدو بهذه القصيدة بإضافة ثلاثة أبيات جديدة كما سبق وأوضحنا .. جاء ترتيب تلك الأبيات مخالفاً للترتيب العام الذى ارتضاه أبو فراس لقصيدته . حيث جاء ترتيب هذه الأبيات الثالث عشر والخامس عشر والسادس عشر .. وبذلك يتضح أن أم كلثوم قد أهملت البيت الرابع عشر الذى تقول كلماته :

وقور، وربعان الصبا يستفزهما
فثأرن أحياناً أدن المهر

وأما البيت السابع عشر من هذه القصيدة .. فكانت أم كلثوم قد أهملته منذ البداية .. وفضلت عليه البيت الثامن عشر.

إذن .. فقد جاء الترتيب النهائى للأبيات التى غنتها أم كلثوم من قصيدة «أراك عصى الدمع» من تأليف أبو فراس.. كما يلى: الأبيات من الأول حتى الخامس.. ثم من البيت الثالث عشر حتى الثامن عشر مع إهمال البيتين: الرابع عشر والسابع عشر.

***

ولقد رأينا أن هذه الرحلة الممتعة مع أشعار أبو فراس وصوت أم كلثوم .. لا يمكن لها أن تكتمل من دون إلقاء بعض الأضواء المبهرة على سيرة حياة شاعر السيف والقلم. وقد ذكر النقاد والمؤرخون عن سيرة حياته الشىء الكثير .. وأول ما ذكروه فى هذا السياق قولهم .. بأن أبو فراس كتب هذه القصيدة أثناء فترة أسره من جانب الروم .. وهذا يعنى وكما سوف يمر علينا بعد لحظات أن شاعرنا الكبير كانت له علاقة قوية بميدان السياسة وأسرار الحروب..

فأبو فراس الحمدانى وفق ما أورده هؤلاء المؤرخون يدعى الحارث بن أبى العلاء السعيد ابن حمدان بن حمدون الحمدانى . كما أنه فى هذا النسب هو ابن عم ناصر الدين وسيف الدولة الحمدانى .. وقد عُرف فى تاريخ الأدب العربى بأبى فراس . وكان من شعراء العصر العباسى الثانى.

ويقول الدكتور أحمد درويش أستاذ الأدب العربى أن أبو فراس ولد بمدينة الموصل فى عام ٩٣٢م.. الموافق ٣٢٠ هـ . وأنه قد عاش بيننا فترة قصيرة لم تصل إلا إلى خمسة وثلاثين عاماً فقط! وقد رحل عن عالمنا فى عام ٩٦٧م.

عاصر أبو فراس فترة تاريخية خصبة من فترات تاريخ الدولة العباسية وصراعها مع دولة الروم فى الشرق حيث شهدت هذه الفترة الكثير من الحروب خاصة بين ابن عمه سيف الدولة الحمدانى أمير حلب ممثلاً للدولة العباسية وبين دولة الروم فى آسيا.

كما شارك أبو فراس فى هذه الحروب.. لذلك يرى العديد من النقاد أنه رغم ما اتسم به من شاعرية رقيقة .. فقد كان فى الوقت نفسه أحد فرسان الدولة الحمدانية ، وقد أسره الروم مرتين .. حيث ظل حبيس الأسر الأول قرابة سبع سنوات، ثم أسر مرة ثانية فى موقعة «مغارة كحل» عام ٩٥٩م.. وفى هذه المرة كان قد أصيب بسهم فى فخذه

جعله عاجزاً عن الحركة مؤقتًا . مما سهل على الروم أسره مرة أخرى . وقد ظل أسيراً حتى فُك أسره قبل وفاته بعامين وكان آنذاك يبلغ من العمر خمسة وثلاثين عاماً.[1]

***

والى جانب ذلك .. عاصر أبو فراس مجموعة كبيرة من أشهر شعراء عصره من أرباب الشعر والقلم .. وكان على رأسهم المتنبى والبحترى وأبو تمام وآخرين .. وقد شهد النقاد لشاعريته حيث فضلوه على المتنبى الذى شهد له هو الآخر بالتقدم والتبريز . حيث لم يكن يتجافى جانبه ، فلا ينبرى لمباراته ، ولا يقدر على مجاراته، وإنما كان يمدحه ويمدح من دونه من آل حمدان تهيباً له واجلالاً[2].

كما أكد المؤرخون فيما كتبوه عن أبو فراس .. أنه كان من الشعراء الذين لم يهتموا بتدوين أو نشر قصائده! نظراً لانشغاله فى الحرب والسياسة. وأن الذى تولى تلك المهمة هو أحد معاصريه «ابن خلويه» .. حيث كان يحتفظ بجزء كبير من هذه القصائد . فأخذفى جمعها وشرحها.

ثم جاء من بعده الثعالبى فتتبع سير هذه القصائد خاصة التى قالها فى صراعه مع الروم، والتى سميت بالروميات .. فجمعها فى كتابه المعروف باسم «يتيمة الدهر» .. ثم بعد ذلك بدأ المستشرقون يهتمون بأشعاره ويقدمون على نشرها وشرحها.

أما بالنسبة للنقاد فقد قالوا.. إن من أهم سمات شعر أبو فراس أنه يستهل أغلب قصائده بالغزل والنسيب على النحو الذى كان يلجأ إليه معظم الشعراء المتقدمين فى عصره . ثم بعد ذلك يتحدث عن الغرض الذى من أجله نظم هذه القصيدة أو تلك كالمدح والفخر أو الوصف.

---

(١) الشاعر والقصيدة – فارس عصى الدمع – د. أحمد درويش– أخبار الأدب.

(٢) شخصيات مشهورة ومغمورة – د. جمال الدين الرمادى.

٢ ابن نبيه المصري

«أفديه إن حفظ الهوى»

مما يجدر الإشارة إليه أن أم كلثوم .. ذكرت فى أكثر من مناسبة أنها قد بذلت جهداً كبيراً لأجل إقناع جمهور الأغنية المعاصرين لها .. خاصة فى بداية حياتها الفنية بأهمية ما كانت تقدمه من فنون القصائد العربية رغم ما كان يعترضها آنذاك من صعوبات، ومما قالته عن ذلك: «أعتقد أن أهم ما يمكن أن يكتب عنى بعد موتى، أننى نقلت الجمهور من الإسفاف الغنائى الذى كنا نعيشه .. من أغانى : «إرخى الستارة إللى فى رحينا، أحسن جيرانك تجرحنا».. إلى مستوى « إن حالى فى هواها عجب» ، و«الصب تفضحه عيونه».. وقد كان إصرارى على خوض هذه المعركة .. أننى وافدة على القاهرة من ريف المنصورة[١].

وربما الذى كان يقوى ساعدها فى هذا الاتجاه وخلال هذه الفترة هو ملحن كبير وعظيم كان يؤمن بأهمية القصيدة المغناة مثل الشيخ أبو العلا محمد. وقد بدأ بنفسه هذا الاتجاه رغم ما كان سائداً فى عصره من كلمات مسفة!

ومن بعد نجاح كوكب الشرق أم كلثوم فى تقديم قصيدة «أراك عصى الدمع» لأبى فراس الحمدانى، واستقبال الجمهور لها استقبالاً طيباً ، فقد أقبلت على غناء قصائد أخرى كثيرة، كان من بينها قصيدتين للشاعر المصرى الذى عاش فى العصر الأيوبى ، وهو ابن النبيه المصرى.

القصيدة الأولى غنتها بعنوان «أفديه إن حفظ الهوى» وهى من ألحان الشيخ أبو العلا محمد .. وقد سجلتها أم كلثوم على اسطوانة جرامفون فى عام ١٩٢٨ .

وفى نفس العام تقريباً سجلت كوكب الشرق قصيدة ابن النبيه الثانية بعنوان : «أماناً أيها القمر المطل » من ألحان الشيخ أبو العلا أيضاً.

وتقول كلمات القصيدة الأولى التى شدت بها أم كلثوم من أشعار ابن النبيه وعددها ستة أبيات :

---

(١) أم كلثوم – د. رتيبة الحفنى ـ مصدر سابق.

أفديه إن حفظ الهوى أو ضيعا
ملك الفؤاد فما عسى أن أصنعا
من لم يذق ظلم الحبيب كظلمه
حلواً فقد جهل المحبة وادّعا
يا أيها الوجه الجميل تدارك
الصبر الجميل فقد وهى وتضعضعا
هل فى فؤادك رحمة لمتيم
ضمت جوانحه فؤاداً موجعًا
هل من سبيل أن أبث صبابتى
أو أشتكى بلواى أو أتوجعا
إنى لأستحى كما عودتنى
بسوى رضاك إليك أن أتشفعا

***

وبالرجوع إلى ديون ابن النبيه المطبوع أوائل هذه القرن والذى نظمه وجمعه ابن النبيه نفسه اتضح أن هذه الأبيات الستة هى جزء أصيل من قصيدة طويلة ، نشرها تحت عنوان «الأشرفيات» نسبه إلى مدائح ابن النبيه للسلطان الأشرف موسى أحد سلاطين الدولة الأيوبية، وكان من سلاطين بنى أيوب الذين خدمهم هذا الشاعر الكبير وكان مطلع هذه القصيدة يقول:

طاب الصبوح لنا فهاك وهات واشرب هنيئًا يا أخى اللذات

كما شملت هذه القصيدة نفسها جزءاً آخر أشاد فيه الشاعر بما قام به السلطان الأشرف فى حروبه مع عساكر الموصل .. وقد قال يمدحه ويستعطفه بقوله:

أفديه إن حفظ الهوى أو ضيعا
ملك الفؤاد فما عسى أن أصنع!!

وهو الجزء الذى اختارت منه أم كلثوم الأبيات الستة المشار إليها آنفاً والتى غنتها فى عام ١٩٢٨ .. وعدد أبيات هذه القصيدة ثلاثة وعشرين بيتاً .. وقد اختتمها الشاعر بقوله فى البيت الثالث والعشرين:

وعلى كلا الحالين إنى شاكر
راع لأن الله يسمع من دعا

وأما القصيدة الثانية من كلمات شاعرنا ابن النبيه المصرى، فهى بعنوان «أمانًا أيها القمر المطل» .. وعدد الأبيات التى غنتها أم كلثوم من هذه القصيدة البالغ عدد أبياتها خمسة وعشرين بيتًا .. سبعة أبيات فقط بزيادة بيت واحد عن القصيدة السابقة . وكلماتها تقول:

أمانًا أيها القمر المطل ... فمن جفنيك أسياف تُسل
يزيد جمال وجهك كل يوم ... ولى جسد يذوب ويضمحل
وما عرف السقام طريق جسمى ... ولكن دل من أهوى يدل
يميل بلحظه السحرى عنى ... صدقتم إن ضيق العين بخل
إذا نشرت ذوائبه عليه ... رأيت الماء رف عليه ظل
أيا ملك القلوب فتكت فيها ... وفُتك فى الرعية لا يحل
قليل الوصل ينفعها فإن لم ... يصبها وابل منه فطل

ولقد لاحظنا أن أم كلثوم قد غيرت فى بعض ألفاظ هذه الأبيات.. ففى البيت الرابع الذى تقول فيه فى الشطر الأول:

«يميل بلحظة السحر عنى» هو فى الأصل:

"يميل بطرفه التركى عنى"

وكذلك غيرت فى بعض كلمات الشطر الثانى من البيت الخامس فقالت: «رأيت الماء ترف عليه ظل» .. بدلاً من قول الشاعر:

"ترى ماء يرف عليه ظل".

***

ولقد أشارت أم كلثوم كثيراً لأسباب لجوئها لهذه التعديلات، وفق ما كانت تراه مناسباً لأذواق مستمعيها، من دون أن يؤثر هذا التعديل على معنى القصيدة أو ما يرمى إليه الشاعر .. حيث مكنتها حرفة إتقان قراءة الأشعار كثيراً من ذلك.

ومما ذكرته فى هذا السياق قولها: «ولعل هذا التذوق، وحفظ آلاف الأبيات الشعرية بين قديم وحديث، هو الذى أعاننى بعد ذلك على أن أختار من قصيدة فيها مائتا بيت ، ثلاثين بيتاً أغنيها، فلا يحس المستمع أننى قفزت من بيت إلى بيت.. فتركت عشرة أبيات

أو عشرين بيتاً، بل ولعل هذه الرحلة مع الشعر هى التى مكنتنى من أن أضع كلمة - مكان كلمة - فى قصائد كثيرة أو أغنيات كثيرة، فلا يحتج أصحابها لأنهم لم يحسوا أننى قصمت ظهر بيت .. أو غيرت المعنى» .[1]

***

وابن النبيه المصرى وفق ما جاء فى كتاب «وفيات الأعيان» لابن خلكان.. هو: أبو الحسن على بن محمد بن الحسن يوسف بن يحيى .. الشاعر البارع كمال الدين النبيه المصرى . وهو من أصحاب الشعر الرقيق والغزل البديع .. وقد عاصر الدولة الأيوبية .. وعاش فى كنف أحد سلاطينها .

ومن النقاد والمؤرخين من يرى أنه من أقارب صلاح الدين الأيوبى . وقد خدم فى معية السلطان الأشرف موسى الملقب بشاه أرمن ، حوالى أربعين عاماً فأخذ يمدحه، ويسجل انتصاراته وأعماله فى كل قصائده سواء التى دونها أو التى كان يلقيها مرتجلاً .. وعاش ابن النبيه حوالى ستين عاماً . حيث توفى فى مدينة نصبين فى عام ٦١٩ هـ .

وفى سيرة حياته التى تقدمت نصوص ديوانه المطبوع أوائل هذا القرن جاء بها أنه توفى فى اليوم الحادى والعشرين من جمادى الأولى عام ٦١٩ هـ .. وعمره تقريبًا نحو ستين عاماً .. كما نُقل ذلك عن صهره رحمه الله.

وبخلاف ذلك فقد توسع بعض المؤرخين من المهتمين بأدب هذه الفترة التاريخية فى الحديث عن ابن النبيه . سواء فيما يخص ميلاده أو حياته أو إنتاجه الأدبى- ومما ذُكر فى هذا السياق أن ابن النبيه قد استظل بالدولة الفاطمية فى أخريات أيامها وتلقى ثقافته فى عصرها.. كما اتصل فى شبابه آنذاك بعلماء هذه الدولة وخاصة من الذين لحقوا ببداية الدولة الأيوبية أيام صلاح الدين . ولعله اتصل ببعض الكتاب أيضًا فى هذه الفترة . وتعلم الكتابة على يد أحدهم، وربما لذلك التحق بديوان الإنشاد أو غيره من دواوين الدولة[2].

كما استدل العديد من المؤرخين والنقاد من ديوان شعره على الشىء الكثير من المعلومات عنه وعن شخصيته.. ومن أهمها أنه اتصل بكبار رجال الدولة الأيوبية

---

(١) أم كلثوم - المصدر السابق.

(٢) الأدب فى العصر الأيوبى- د. محمد زغلول سلام.

وسلاطينها، كما أنه غادر مصر فى عهد السلطان الكامل محمد بن العادل ليلحق بأخيه الأشرف موسى الذى كان يتولى حكم البلاد الشرقية فى الجزيرة الفراتية، الموصل وإربك وميافارين وخلاط ببلاد الأرض.. حتى لقب «شاه أرمن» .

كما تؤكد أشعاره كذلك أنه لم يكتب الشعر إلا وهو فى سن الأربعين، وأنه التحق بخدمة الأشرف موسى فى حدود عام ٦٠٠ هـ ، بعد أن انتصر على صاحب الموصل، وانضم إلى مجموعة الأدباء والشعراء الذين خدموا الأشرف ولزموه آنذاك.

ويستند المؤرخون فى قولهم السابق على ما ذكره ابن واصل فى كتاب «مفرج الكروب» وفى ذكره لحوادث سنة ٦٠٠ هـ أن ابن النبيه قد هنأ الأشرف بهذا الانتصار. كما ذكر ابن واصل أن ابن النبيه هنأ السلطان الأشرف كذلك بقصيدة لتعميره قلعة الطور بالشام سنة ٦٠٩ هـ مع والده السلطان العادل .

ورغم أن ابن النبيه لم يتبوأ مهنة القضاء فى حياته، بل كان كاتباً فى ديوان الإنشاء.. إلا أنه كان يلقب بالقاضى ابن النبيه .. وفى تعليل الدكتور محمد زغلول سلام لذلك .. قال: «ولكن جرت العادة أن يطلق لقب القاضى على كل صاحب قلم، كما يطلق لقب الأمير على صاحب كل سيف».

***

هذا عن حياته العامة .. وبعض لقطات من سيرته الذاتية .. أما بخصوص ديوان شعره الذى اختارت منه أم كلثوم الأبيات المشار إليها من قبل - فيقول عنه النقاد - أن هذا الديوان لم يشمل كل أشعار ابن النبيه ، وهى التى اختارها بنفسه .. مقسمًا هذا الديوان إلى ثلاثة أقسام ، قسم فى مدح الخليفة العباس الناصر لدين الله وأسماه «الخليفيات» والقسم الثانى، قصائد فى مدح الملك العادل وسماه «العادليات» .. وأما القسم الثالث .. وهو أكبرها فقد قالها فى الملك الأشرف موسى وسماه «الأشرفيات» .

ولقد اتضح لنا أن الأبيات التى غنتها أم كلثوم كانت تنتمى إلى القسم الثالث . والمسماه « بالأشرفيات» . وقد غلبت صفات الغزل والمديح على أشعار ابن النبيه .. كما أشار إلى ذلك العديد من النقاد..

٣ الشريف الرضى
«في فيلم دنانير»

فى عام ١٩٣٥ ، وعندما قررت كوكب الشرق سيدة القصيدة العربية أم كلثوم دخول ميدان السينما، بعد نجاح غريمها الفنان محمد عبد الوهاب فى الميدان نفسه عندما عرض فيلمه الأول «الوردة البيضاء».. اختارت قصة الشاعر أحمد رامى «وداد» لكى تكون أولى أعمالها السينمائية والاستعراضية والغنائية فوق الشاشة البيضاء.

ولقد حرصت أم كلثوم على أن تغنى فى هذا الفيلم العديد من الأغنيات والقصائد إلى جانب اضطلاعها بالتمثيل أيضاً ، حيث بلغ عدد هذه الأغنيات تسع أغنيات ما بين قصيدة وموال ومونولوج وموشح .

وكان من بين ما غنته كوكب الشرق فى هذا الفيلم قصيدة للشاعر العباسى المشهور الشريف الرضى .. بعنوان «أيها الرائح المُجد» .

وفى عام ١٩٣٦ سجلت أم كلثوم الأبيات نفسها من ألحان زكريا أحمد على اسطوانة تم تداولها فى الأسواق كما كانت كثيراً ما تشدو بها فى حفلاتها علامة آنذاك.

وتقول كلمات هذه القصيدة وعدد أبياتها خمسة:

أيها الرائح المجد تحمل ... حاجة للمتيم المشتاق
إقرعنى السلام أحباب قلبى ... فبلاغ السلام بعض التلاقى
وإذا ما مررت بالديار فاشهد ... أن قلبى يفيض بالأشواق
وإذا ما سئلت عنى فقل ... نضو هوى ما أظنه اليوم باق
وابك عنى فطالما كنت من قبل ... أعير الدموع للعشاق

***

وعندما رجعنا إلى ديوان الشريف الرضى الذى سطر فيه هذه الأبيات وغيرها من أبيات بقية القصيدة، والذى انتقت منه كوكب الشرق هذه الأبيات التى شدت بها، اتضح لنا أن هناك بعض الملاحظات التى ارتبطت بها، وكانت أولى تلك الملاحظات أن أم كلثوم اختارت خمسة أبيات فقط من بين الأبيات الستة المدونة فى الديوان، والتى قالها المؤلف

فى الحنين والاشتياق، والمندرجة تحت مسمى «الحجازيات»، وذلك وفق ما ارتضاه المؤلف من تقسيم فى ديوانه الذى طبع أكثر من مرة.

والبيت الذى أهملته أم كلثوم تقول كلماته:

ضاع قلبى فأنشدوا لى بين جمع
ومنى عند بعض تلك الحداق

وموقعه بالنسبة لترتيب هذه الأبيات رقم خمسة!.. أى أن أم كلثوم قد غنت الأبيات من واحد إلى ستة بعد ما أغفلت البيت الخامس!!.

وثانياً فقد لاحظنا أن أم كلثوم قد غيرت فى كلمات الأبيات التى تغنت بها من غير ما كتبه الشريف الرضى نفسه كما فى البيت الأول من هذه القصيدة، حيث اختارت أم كلثوم كلمة «المتيم» بدلاً من كلمة «المعذب» وفى البيت الثانى الذى يعد أكثر الأبيات تعرضاً للتغيير استبدلت أم كلثوم ثلاث كلمات هى: «أحباب قلبى» فى الشطر الأول من البيت بدلاً من «أهل المصلى» وفى الشطر الثانى من البيت نفسه استبدلت حرف الواو بحرف الفاء فجاءت هذه الكلمة المغناة «فبلا غ» بدلا من «وبلا غ»، وفى البيت الثالث استبدلت أم كلثوم أيضاً كلمة «باخيف» ووضعت بدلاً منها كلمة «بالديار»، كما حذفت كلمة «إليه» من الشطر الثانى من البيت نفسه فأصبح ما فيه من كلمات تقول: «إن قلبى يفيض بالأشواق» بدلاً من «إن قلبى يفيض إليه بالأشواق».

***

ولم تكتف أم كلثوم بهذه الأبيات من ديوان الشريف الرضى، بل عادت وشدت مرة أخرى بأبيات جديدة من إحدى قصائده فى الغزل، رغم ما أثير حول هذه الأبيات من شكوك ارتبطت بشاعر غيره.

ففى عام ١٩٣٩ غنت أم كلثوم فى فيلمها الجديد «دنانير» جزءاً من قصيدة «قولى لطيفك» من تلحين الشيخ زكريا أحمد .. ثم عادت مرة أخرى وسجلت هذه الأبيات على اسطوانة فى عام ١٩٤٤، وذلك وفق ما جاء فى كتاب «النصوص الكاملة لأغنيات أم كلثوم والمشار إليه من قبل.

وتقول كلمات هذه الأبيات الجديدة:

قولى لطيفك ينثنى ... من مضجعى وقت الرقاد
كى أستريح ونتطفى ... نار تأجج فى الفؤاد
مضنى تقلبه الأكف ... على فراش من سهاد
أما أنا فكما علمت ... فهل لوصلك من معاد

قولى لطيفك ينثنى عن مضجعى وقت الهجوع
كى أستريح وتنطفى نار تأجج فى الضلوع
مضنى تقلبه الأكف على فراش من دموع
أما أنا فكما علمت فهل لوصلك من رجوع
قولى لطيفك ينثنى عن مضجعى وقت المنام
كى أستريح وتنطفى نار تأجج فى العظام
مضنى تقلبه الأكف على فراش من سقام
أما أنا فكما علمت فهل لوصلك من دوام

وهناك من النقاد من يرى أن هذه الأبيات ليست من تأليف الشريف الرضى، بل هى من تأليف شاعر آخر يدعى العاص عبد الوهاب وهو شاعر من دمشق معروف «بديك الحق» كما أن هناك فريق آخر من هؤلاء النقاد والمؤرخين من الذين نسبوا هذه الأبيات للشريف الرضى، خاصة المهتمين بشئون فن الأغنية وبتاريخها. ومن هؤلاء كل من الدكتورة رتيبة الحفنى وكمال النجمى.

***

ولكننا عندما رجعنا بالفعل إلى ديوان الشريف الرضى لأجل أن نقيس ما جاء فيه من أبيات، مع مضاهة لما غنته أم كلثوم.. ومعرفة الملاحظات المرتبطة بها سواء باللحن أو بالكلمات .. مثلما فعلنا ذلك من قبل مع غيره من الشعراء القدامى .. فإننا لم نعثر بالفعل على هذه الأبيات!.

ولا نعرف السبب وراء تمسك مؤرخو الفن بالقول بأن هذه الأبيات من تأليف الشريف الرضى! . اللهم إلا على سبيل الاستسهال وحتى لا يتعبوا رؤوسهم فى البحث والتنقيب!.

***

ونظراً لقيمة هذا الشاعر الكبير الشريف الرضى، ولقيمة كوكب الشرق أم كلثوم التى ارتبطت بكلمات قصائده.. فقد رأينا من الضرورى الوقوف على بعض ملامح حياة هذا الشاعر.. وفق ما جاء فى العديد من الكتب والمصادر، لأجل أن تكتمل الفائدة ويعرف المتابعون لنا .. كيف كانت أم كلثوم تتعامل مع فحول الشعراء العرب.

ومما لاحظناه فى هذا السياق أن الموسوعات العامة والأدبية والمعلوماتية قد اهتمت هى الأخرى بمشوار حياة هذا الشاعر الكبير، فذكرت عنه الشىء الكثير سواء عن حياته الخاصة أو مشواره الأدبى فى مجال النثر والشعر.

ولقد أجمعت كل الكتب على أن الشريف الرضى.. هو أبو الحسن محمد بن الطاهر ذى المناقب أبى أحمد الحسين بن موسى بن إبراهيم بن موسى الكاظم بن جعفر الصادق بن محمد الباقر بن زين العابدين بن الحسين بن على بن أبى طالب[١].

ولد الشريف الرضى أو أبو الحسن محمد بن الطاهر فى بغداد سنة ٣٥٩هـ وقال الشعر بعد أن جاوز العشر سنين بقليل ، وكان أبوه عظيم المنزلة لدى خلفاء بنى العباس ، وكذلك لدى الملوك البويهيمين.

كما تولى نقابة الطالبيين وإمارة الحج وديوان المظالم عدة مرات، وبعد وفاة والده عاصر الشريف الرضى ثلاثة من الخلفاء العباسيين .. هم المطيع والطائع والقادر. وقد مدح الخليفين الأخيرين بأبيات من قصائده. ونراه قد شهد فى الفترة نفسها أحداثًا وصراعات سياسية كثيرة . إذ لم يكن خلفاء بنى العباس فى عهده يملكون من أمرهم ضراً ولا نفعاً حيث لم يكفيهم من الخلافة إلا السكة والاسم فقط!!

مات الشريف الرضى فى سن الشباب، إذ رحل عن دنيانا فى سن الرابعة والأربعين من عمره، ففى يوم الأحد الموافق ٢٦ يونية عام ١٠١٦ م ٦ من محرم عام ٤٠٦ هـ. مات هذا الشاعر والأديب الكبير، مخلفًا وراءه العديد من الآثار الأدبية المعروفة سواء فى مجال النثر أو الشعر.

وكانت من أهم مؤلفاته كتب: الرسائل، نهج البلاغة، تلخيص البيان فى مجازات القرآن، وكتب أخرى فى النثر، كما حظى شعره بإعجاب الشعراء والأدباء والنقاد من أهل عصره، فقد تحدث عنه الثعالبى فى الجزء الثانى من كتابه «يتيمة الدهر» حيث قال: ابتدأ يقول الشعر بعد أن جاوز العشر سنين بقليل وهو اليوم أبرع أبناء الزمان وأنجب سادة العراق، ثم هو أشهر الطالبيين».

وللشريف الرضى ديوان جمع فيه كل قصائده إذ رتبه على الأغراض التى رآها .. فجعل باباً للمديح وبابًا للفخر وبابًا للرثاء، وبابًا للفنون المختلفة، ثم رتب القصائد فى كل باب على القوافى متبعاً نظام حروف الهجاء .

ثم جاء ابنه عدنان من بعده فأضاف بابًا جديداً ألحقه بالديوان المذكور وقد أسماه باب الزيادات، بعد أن ضم إليه أبياتًا لم تنشر من قبل . ويبلغ عدد أبيات هذا الديوان ٩٣٥ بيتاً كما يشتمل على أبيات مفردة ومقطوعات صغيرة[٢].

---

(١) الشريف الرضى – حياته وشعره – إعداد جعفر نور الدين.
(٢) المصدر السابق.

٤ عمر الخيام

«سمعت صوتا هاتفا»

تمثل رباعيات الخيام .. خاصة بعد ترجمتها إلى اللغة العربية، نقطة تحول هامة وكبيرة فى حياة أم كلثوم، فيما يخص إقبالها على غناء القصائد العربية خاصة القديمة!.

فقد أقبلت سيدة القصيدة العربية على الشدو بهذه الأبيات بعد ما رسخت أقدامها فى ميدان غناء القصائد، وبعد أن ازدادت خبرتها فى المجال نفسه.

وكذلك تعتبر قصيدة «الرباعيات» من أولى قصائد الشعر العربى الفصيح الذى تغنت به أم كلثوم خارج نطاق عملها السينمائى، أضف إلى ذلك أن قصيدة «سمعت صوتاً هاتفاً»، والتى انتقت منها الأبيات التى شدت بها قد جاءت بعد تجربة كبيرة وغير مسبوقة فى مجال القصائد العربية، خلال المشوار الطويل التى بدأت أولى خطواته فى عام ١٩٢٨.

ليس هذا فقط - بل وتعتبر قصيدة عمر الخيام المشهورة .. فتحًا جديداً فى عالم تلحين القصائد، بدخول ملحن كبير مثل رياض السنباطى هذا الميدان بعد كل من الشيخ أبو العلا محمد والدكتور النجريدى وزكريا أحمد والقصبجى.

والغريب أن هذه القصيدة التى أبدعت فيها أم كلثوم كانت من ترجمة وأشعار شاعر الشباب أحمد رامى، الذى بدأ حياته شاعراً فى مجال الفصحى ثم تحول بعد ذلك إلى شعر العامية.. وأبدع فيه بناء على إقناع أم كلثوم له بذلك.

هذا الإبداع ظهر جليًا فى الكثير من الأغنيات التى شدت بها أم كلثوم، ولسوف يكون لنا مع هذا الشاعر الكبير لقاء طويل عند الحديث عن علاقة أم كلثوم بشعراء العامية المحترفين.. فى الباب الثانى من هذا الكتاب.

ويرى المؤرخون والنقاد.. أن أم كلثوم قد أنهت مرحلة هامة من مراحل حياتها الفنية بدءاً من عام ١٩٤٩ حين شدت بأشعار عمر الخيام، وقد استعدت من بعدها لدخول الميدان نفسه ولكن مع شعراء من العصر الحديث سواء من مصر أو من الدولة العربية والإسلامية ولسوف نبين ذلك أيضاً تباعاً وخلال هذه الأوراق.

ولقصيدة «سمعت صوتًا هاتفًا فى السحر» قصة رواها كل من ملحنها رياض السنباطى ومترجمها أحمد رامى.. وهى لا تبعد كثيراً عن مضمون هذه الأبيات التى تغنت بها أم كلثوم ، بل وتصب فى إطارها صباً مباشراً.

وقد ذكرت الدكتورة نعمات أحمد فؤاد جانبًا من هذه القصة عند حديثها عن ذكريات أم كلثوم مع ملحن قصائدها.

ومما ذكرته فى هذا السياق قولها:

«.. وفى الزمالك وضع السنباطى اللحن الذى يردده بينه وبين نفسه ويستعيده كلما اشتاق إلى عوده.. عن رباعيات الخيام .. وقف السنباطى فى إحدى قراءاته للرباعيات عند البيت:

أطفىء لظى القلب بشهد الرضاب
فإنما الأيام مثل السحاب

وكان هذا البيت أول بيت لحنه السنباطى من الرباعيات، ثم أخذ يلحن رباعيات كثيرة مختلفة عن الديوان. وظل على هذا الحال عدة شهور، ثم ذهب إلى أم كلثوم، وأسمعها اللحن..»(١).

وكذلك كانت لهذه الرباعيات قصة مع مؤلفها أو مترجمها الشاعر أحمد رامى .. حيث ارتبطت برحيل أحد أخوته عندما كان يدرس فى فرنسا.

وعن ذلك قال أحمد رامى: «لقد بدأت ترجمة هذه الرباعيات بعد أن وصل نعى أخى الشقيق الذى مات ودفن فى دار غربة، وأنا خارج هذه الدار، فاستمددت من حزنى عليه قوة على تصوير آلام الخيام، وظهر لعينى بطلان الحياة التى احتقرها فى رباعياته، فحسبتنى وأنا أترجمها أنظم رباعيات جديدة أودعها حزنى على أخى الراحل فى عنفوان الشباب، وأصبر نفسى بقرضها على فقده»(٢).

***

والقصيدة التى غنتها أم كلثوم من شعر عمر الخيام، تقول كلماتها وفق منهجنا السابق الذى يقوم على تقديم الأبيات وإظهار ما بها من تعديلات أدخلتها أم كلثوم وملحنوها:

---

(١) أم كلثوم وعصر من الفن- د. نعمات أحمد فؤاد.

(٢) مقدمة ترجمة الرباعيات - أحمد رامى.

سمعت صوتًا هاتفًا فى السحر ... نادى من الغيب غفاة البشر
هبوا إملأوا كأس المنى قبل أن ... نملأ كأس العمر كف القدر

***

لا تشغل البال بماضى الزمان ... ولا بأتى العيش قبل الأوان
واغنم من الحاضر لذاته ... فليس فى طبع الليالى الأمان

***

غدًا يظهر الغيب واليوم لى ... وكم نحيب الظن فى المقبل
ولست بالغافل حتى أرى ... جمال دنياى ولا أجتلى

***

القلب قد أضناه عشق الجمال ... والصدر ضاق بما لا يقال
يا رب هل يرضيك هذا الظمأ ... والماء ينساب أمامى زلال

***

أولى بهذا القلب أن يخفقا ... وفى ضرام الحب أن يحرقا
ما أضيع اليوم الذى مر بى ... من غير أن أهوى وأن أعشقا

***

أفق خفيف الظل هذا السحر ... نادى دع النوم وناغ الوتر
فما أطال النوم عمرًا ولا ... قصر فى الأعمار طول السهر

***

فكم توالى الليل بعد النهار ... وطال بالأنجم هذا المدار
فامش الهوينا إن هذا الثرى ... من أعين ساحرة الأحوراء

***

لا توحش النفس بخوف الظنون ... واغنم من الحاضر أمن اليقين
فقد تساوى فى الثرى راحل ... غدا، وماض فى ألوف السنين

***

أطفئ لظى القلب بشهد الرضاب ... فإنما الأيام مثل السحاب
وعيشنا طيف خيال فنل ... حظك منه قبل فوت الشباب

***

لبست ثوب العيش لم أستشر ... وحرت فيه بين شتى الفكر
وسوف أنضو الثوب عنى ولم ... أدرك لماذا جئت أين المفر؟

***

يا من يحار الفهم فى قدرتك ... وتطلب النفس حمى طاعتك
أسكرنى الإثم .. ولكننى ... صحوت بالآمال فى رحمتك

***

إن لم أكن أخلصت فى طاعتك ... فإننى أطمع فى رحمتك
وإنما يشفع لى .. أننى ... قد عشت لا أشرك فى وحدتك

***

تخفى عن الناس سنا طلعتك ... وكل ما فى الكون من صنعتك
فأنت مجلاه وأنت الذى ... ترى بديع الصنع فى آيتك

***

إن تفصل القطرة من بحرها ... ففى مداه منتهى أمرها
تقاربت يا رب.. ما بيننا ... مسافة البعد على قدرها

***

يا عالم الأسرار.. علم اليقين ... يا كاشف الضر عن البائسين
يا قابل الأعذار عدنا إلى ... ظلك فاقبل توبة التائبين

***

والأبيات السابقة يبلغ عددها ثلاثون بيتاً من أصل ثلاثمائة واثنتين وأربعين بيتاً هو كل عدد أبيات الرباعيات التى ترجمها أحمد رامى، ومما لاحظناه أن كوكب الشرق أم كلثوم

حين أقدمت على غناء الرباعيات اختارت أبياتاً بعينها من هذه القصيدة الطويلة .. دون مراعاة للترتيب العام الذى ارتضاه عمر الخيام أو المترجم أحمد رامى!!

ولسوف يبدو لنا ذلك بوضوح من خلال استعراضنا لما هو آت من كلمات تستحق التوقف عندها طويلاً.

ولقد حرصت أم كلثوم على اختيار الأبيات الأول والثانى وفق ترتيب الديوان .. إلا أنها أخلت بعد ذلك بهذا الترتيب .. فيما عدا البيتين الأخيرين اللذين جاءا فى موقعهما الصحيح وفق الترتيب العام للديوان .. باعتبارهما آخر ما كتبه المؤلف ونشره المترجم فى الديوان ذاته.

ورغم التزام أم كلثوم بترتيب البيت الأول والثانى.. فقد غيرت فى بعض كلماتهما.. فاختارت كلمة «الغيب» فى الشطر الثانى من البيت الأول بدلا من كلمة «القبو»، كما اختارت كلمة «كأس المنى» فى البيت الثانى بدلاً من كلمة «كأس الطلا» .. وكلمة «تملأ» بدلاً من «تطعم» .

وتبدأ مراسم اختلاف الترتيب من البيتين الثالث والرابع، حيث جاء موقعها فى القصيدة الأصلية رقم مائة وثلاثة وخمسين ومائة وأربعة وخمسين. أما البيتين الخامس والسادس فيحتلان رقم اثنى عشرة وثلاثة عشرة. والبيتين السابع والثامن فقد احتلا رقم مائة وسبعة وسبعين، ومائة وثمانية وسبعين. هذا بخلاف ما بهما من تغييرات خاصة فى البيت الثامن والتى أدخلتها أم كلثوم على كلمات هذا البيت بحيث جاء مختلفاً كله إلى حد كبير. فالبيت الذى نشر بالديوان تقول كلماته:

يـــا رب هـــل يـــرضـــيـــك أن أرى ظـــمـــآن والمـــاء أمـــامـــى زلال

أما البيت الذى غنته أم كلثوم فتقول كلماته بعد التغيير:

يـا رب هـل يـرضـيـك هـذا الـظـمـأ والمـــاء يـنـســـاب أمـــامـــى زلال

والبيت التاسع والعاشر يحتل كل منهما رقمى ثلاثمائة وثلاثة وثلاثمائة وأربعة، ثم البيتين الحادى عشر والثانى عشر فيحتل كل منهما رقم تسعة وعشرين وثلاثين .. مع وجود تغيير طفيف خاصة فى البيت الثانى عشر، إذ غيرت أم كلثوم فى الشطر الثانى وقد أصبح :

"نادى.. دع النوم وناغ الوتر"..

بدلاً من :　　وهاتها صرفاً وناغ الوتر"!!

أما البيتين الثالث عشر والرابع عشر فقد اتضح أنهما يحتلان رقم واحد وأربعين واثنين وأربعين، مع وجود أيضًا تغيير فى كلمة «وكم» حيث صارت «فكم» والبيتين الخامس عشر والسادس عشر أصبح مكانهما رقم مائة وواحد وثمانين ومائة واثنين وثمانين وبدون أدنى تغيير.

والبيتين السابع عشر والثامن عشر فقد احتل كل منهما رقم تسعة وخمسين وستين، مع وجود تغير فى الشطر الأول من البيت السابع عشر إذ استبدلت أم كلثوم كلمتى «برد الشراب» بكلمتى «شهد الرضاب» وكذلك البيتين التاسع عشر والعشرين فقد احتل كل منهما رقم ثلاثة وعشرين وأربعة وعشرين، مع حذف حرف الهاء من كلمة «أنضوه» لتصير «أنضو» ..

أما البيتين الواحد والعشرين، والثانى والعشرين فقد احتلا رقمى مائتين وتسعة وأربعين ومائتين وخمسين ، بلا تعديل.

والبيتين الثالث والعشرين والرابع والعشرين فقد احتلا رقمى ثلاثمائة وتسعة وعشرين وثلاثمائة وثلاثين، مع تعديل طفيف فى كلمة «أطمع» التى اختارتها أم كلثوم بدلاً من كلمة «فنت»، والبيتين الخامس والعشرين والسادس والعشرين يحتلان كذلك رقمى مائتين وسبعة وثمانين ومائتين وثمانية وثمانين بدون تعديل.

والبيتين السابع والعشرين والثامن والعشرين يحتلان رقمى مائتين وسبعة وثلاثين ومائتين وثمانية وثلاثين.

أما البيتين التاسع والعشرين والثلاثين فقد حرصت أم كلثوم على أن يكونا فى موقعهما الذى اختاره الشاعر والمترجم وبذلك فقد احتلا رقمى ثلاثمائة وواحد وأربعين وثلاثمائة واثنتين وأربعين، مع وجود تعديل فى البيت الأخير إذ استبدلت أم كلثوم كلمة «عدنا » بدلاً من كلمة «فئنا».

* * *

هذا عن القصيدة وما جاء بها من أبيات ظهرت بها بعض التعديلات وفق ما اختاره المترجم بعد موافقة أم كلثوم، فماذا عن صاحب الرباعيات نفسه.. العلامة الكبير عمر الخيام؟! وقد عهدناكم منذ التقينا لأول مرة فوق هذه الأوراق ضرورة الوقوف على بعض ما سطره التاريخ والمؤرخون عن صاحب هذه القصيدة وكل القصائد.

وعمر الخيام صاحب هذه الرباعيات وفقًا الإجماع هو غياث الدين عمر بن إبراهيم الخيام نسبة إلى مهنة والده، وهو فارسى الأصل «إيرانى» .. ولد فى مقاطعة خرسان فى عام ١٠٤٠ م وتعلم فى بلدته خرسان ثم رحل بعد ذلك إلى مكة وبغداد .. وبعد فترة عاد مرة أخرى ليستقر فى خرسان.

وقدم لنا الشاعر الراحل أحمد رامى الشىء الكثير عن سيرة عمر الخيام فى مقدمة ترجمته لديوانه، ومما أشار إليه فى هذا السياق ويستحق التوقف عنده قوله إن هناك كثير من الشك قد اكتنف حياة الخيام فى جميع أدوار حياته .. وذلك من يوم مولده وحتى يوم وفاته. وأضاف رامى قائلاً: «ولولا أن قبره موجود الآن بنيسابور والمعروف بمقبرة «الحيرة» لأبى الموت كذلك أن يدلنا على مرقده الأخير»!

ويؤكد أحمد رامى أن عمر الخيام قد مات ما بين سنة ١١١٢م وسنة ١١٣٥م . كما أكد على لسان بعض المؤرخين من أهل عصره أن عمر الخيام كان إمام أهل خرسان وأعلم أهل بلدته وزمانه، وأكثرهم اضطلاعًا بعلوم الفلك والفلسفة.

إلى جانب ذلك كتب الشعر والأدب.. وكان من أشهر ما كتبه فى هذا المجال «رباعياته» التى احتار المؤرخون فى تحديد تاريخ كتابتها، حيث أن أقدم نسخة تم العثور عليها لم تثبت إلا عام ٨٦٥هـ- ١٤٦٠ م، كما حاروا كذلك فى تحديد هذه الرباعيات، حيث أن أقدم نسخة تحوى ١٥٨ رباعية ويتراوح عددها فى النسخ الأخرى ما بين ٧٦ و٨٤٥ رباعية.

ومن المحتمل أن يكون هناك نسخة أخرى لهذه الرباعيات كتبت أثناء حياته ولكن تعرض نيسابور بعد وفاته للغزو والإحراق على يد المغول والتتار قطع الأمل فى وجود هذه النسخة الصادقة.

والرباعيات التى أبدعها الخيام هى عبارة عن مقطوعات من أربعة أشعار يكون الشطر الثالث فيها مطلقًا .. وقد نقلت إلى اللغة العربية بعد ترجمتها أكثر من مرة.

ورغم أن عمر الخيام قد اشتهر فى التاريخ بالعديد من الأعمال العلمية والفلكية إلا أن شهرته ظلت مرتبطة حتى الآن بتلك الرباعيات .. وهذا يدل دلالة كبيرة على قيمة الأدب .. وأهميته كمصدر من مصادر بقاء الأعمال إلى الخلود.

٥ العباس بن الأحنف

«وأبيات نسبت إليه ظلماً!»

على الرغم من أن عدد الأبيات التى شدت بها سيدة القصيدة العربية وسيدة الغناء أم كلثوم للشاعر العباسى العباس بن الأحنف لم تتعد أصابع اليد الواحدة .. إلا أنها قد أخذت منا جهداً ووقتاً يساوى تقريبًا نصف ما بذلناه فى الكتاب كله ، والسبب فى ذلك يرجع فى الأساس إلى ذلك الخطأ الذى جاء فى كتاب «جامع أغانى أم كلثوم» ، وهو الخطأ الذى ارتبط بأحداث فيلم «سلامة» والذى غنت فيه أم كلثوم هذه القصيدة.

***

ففى عام ١٩٤٤ . وفى الفيلم المذكور والذى وضع قصته الأديب على أحمد باكثير غنت أم كلثوم عدة قصائد ملحنة كان من بينها بيتين بعنوان «يا بعيد الدار» وقد نسبتا إلى العباس بن الأحنف وتقول كلماتهما:

يا بعيد الدار موصولا بقلبى ولسانى
ربما أبعدك الدهر وأدنتك الليالى
كلما زاد الشوق وفاضت بى شجونى
لُذت بالسلوان والبُعد وما ينفعلان

وبعد البحث والتنقيب فى أشعار العباس بن الأحنف، ومن داخل أوراق ديوانه.. لم نعثر على هذين البيتين.. وكانت تلك هى المفاجأة! بل وعثرنا على أبيات مشابهة لها فى بعض الألفاظ والكلمات! وذلك ضمن أربعة أبيات اختتم بها الشاعر ديوانه المطبوع ! وقد قالها قبيل موته، كما سوف نشير إلى ذلك تفصيلاً عند الحديث عن بعض لمحات من سيرة حياته.

والبيتان اللذان ذكرهما العباس بن الأحنف تقول كلماتهما:

يا غريب الدار عن وطنه ... مغرداً يبكى على شجنه
كلما جد البكاء به ... دبت الأسقام فى بدنه

ولكى نقطع الشك باليقين فى شأن هذين البيتين، أخذنا فى السؤال عنهما لدى

بعض المصادر الحيوية من أساتذة الجامعات وبعض الشعراء. وكلهم أجمعوا على أن ما شدت به أم كلثوم وما نُسب إلى العباس بن الأحنف مشكوك فيه لسببين : أولهما: أن بالبيتين مشاكل كثيرة تتعلق بأصول العروض! وثانياً: أن مثل هذه الموضوعات لم يتطرق إليها ابن الأحنف رغم ما اشتهر به من موضوعات قالها فى الغزل!

ومن أجل ذلك ثبت لدينا باليقين أن ما لحنه زكريا أحمد ونسب إلى العباس بن الأحنف غير صحيح.. أو ربما غير الملحن فى الكلمات وفق ما رآه صالحًا للألحان المصاحبة لأحداث الفيلم!.

ولقد وقع غيرنا من المؤرخين والمهتمين بالفن فى نفس الخطأ. إذ ذكرت الدكتورة رتيبة الحفنى فى كتابها الهام عن «أم كلثوم» وفى صفحة٢١٣ من هذا الكتاب إن قصيدة «يا بعيد الدار» من تأليف عباس بن الأحنف.

***

وما دمنا قد ذكرنا الشاعر الكبير بن الأحنف، كان لزاماً علينا على الأقل وردًا على ما التصق به ظلمًا من أبيات لم يؤلفها، ضرورة إلقاء بعض الأضواء المبهرة على بعض لقطات حياته وأشعاره .. وكذلك عما أثير من أساطير حول موته وما ارتبط بهذا الرجل من كلمات حُرفت من أجل أن تغنيها أم كلثوم!

وشاعرنا المقصود هنا.. وفق الإجماع هو أبو الفضل العباس بن الأحنف بن الأسود ابن طلحة بن حردان بن كلدة بن عبد الله بن حنيفة بن نجيم الحنفى اليمامى(١).

وهناك من يرى أن نسبه لليمامة ربما جاء لمولده بها - أما صالح بن عبد الوهاب فيقول أنه عربى من خرسان ومنشؤه بغداد(٢).

وشاعرنا المنوه عنه يعتبر من الشعراء العرب الذين قصروا شعرهم على الغزل ، إذ لم يتجاوزه إلى غيره من فنون الشعر إلا فى حالات نادرة.

ولقد استدل المؤرخون من دراسة أشعاره بأنه كان على اتصال بالمهدى والرشيد وهما من الخلفاء العباسيين، وكان اتصاله بهما اتصال إلفة وليس اتصال تكسب!

---

(١) وفيات الأعيان لابن خلكان.

(٢) من مقدمة ديوان العباس بن الأحنف - كتبها كرم البستانى.

وفى إطار اهتمام بن الأحنف بشعر الغزل.. فقد ذكر العديد من النساء اللائى حفل بهن فى أشعاره، وكان من أبرزهن فوز وظلوم ونرجس ونسرين وسحر وضياء ، إلا أن معظم ما قاله فى الغزل قد اختص به فوز بالذات. واحتل هذا الغزل قرابة ثلاثة أرباع ديوانه!

وهناك من النقاد والمؤرخين من يرى أن فوز هذه ما هى إلا امرأة باسم مستعار، وقد لجأ إلى تلك الحيلة خشية أن يعرض نفسه للعقاب.

وإلى جانب ما اتصف به شعر الأحنف كان كذلك يتسم بالنزعة الدينية، حيث حفل بالعديد من المظاهر الإسلامية كان من أبرزها التدين والتقوى سواء عنده أو عند محبوبته فوز، وحرصهما على أداء العبادات(١).

ولقد أعجب المغنى العباسى الكبير إبراهيم الموصلى بأشعار العباس بن الأحنف ولذلك فقد كان كثيراً ما يتغنى بتلك الأشعار. وربما إقبال الموصلى على هذه الخطوة.. هو الذى شجع الملحن زكريا أحمد لأن ينسب البيتين السابقين ظلماً للأحنف!

وعلى أية حال، فقد أدلينا برأينا فى هذا الأمر الهام .. وعلى غيرنا من المهتمين بالشعر العربى وقضاياها .. ضرورة الوقوف أكثر على هذه القضية .. والتثبت من وقائعها.

***

ولكن ماذا عما قيل بشأن موته من أساطير؟!.. خاصة وأنها ارتبطت بالأبيات السابق الإشارة إليها والتى تشبه فى بعض معانيها ما شدت به أم كلثوم؟!

هذه الأساطير روتها عنه عدة مصادر كان من أهمها ما رواه عمر بن شيبة الذى حكى يقول: مات إبراهيم المعروف بالنديم الموصلى سنة ثمان وثمانيين مئة.. ومات فى ذلك اليوم الكسائى النحوى والعباس بن الأحنف وهشيمة ابن الخمارة .. فرُفع ذلك إلى الرشيد، فأمر المأمون أن يصلى عليهم .. فصفوا بين يديه، فقال: من هذا الأول؟! قالوا: إبراهيم الموصلى .. فقال: أخروه، وقدموا العباس بن الأحنف، فقدموه، فصلى عليه. فلما فرغ انصرف، فدنا منه هشام بن مالك الخزاعى فقال: يا سيدى كيف آثرت العباس بن الأحنف بالتقدمة على من حضر، فأنشد: وسعى بها ناس فقالوا: إنها.. لهى التى تشقى بها وتجاهد.. ثم قال: أتحفظها؟ قلت: نعم، وأنشدته.. فقال المأمون: أليس من قال هذا الشعر أولى بالتقدمة؟ فقلت: بلى والله يا سيدى!

(١) التيار الإسلامى فى شعر العصر العباسى الأول – د. مجاهد مصطفى بهجت.

وثمة إسطورة ثانية رواها صاحب كتاب «معاهد التنصيص» عن ابن زكريا الصولى حدثه بها رجل من قريش، ورواها المسعودى فى «مروج الذهب» عن جماعة من أهل البصرة، خرجوا يريدون الحج، فلما كانوا فى بعض الطريق عرجوا ليصلوا، وإذا هم بغلام جاءهم وقال لهم: هل فيكم أحد من أهل البصرة، فأجابوه: كلنا من أهل البصرة، فما تريد ؟! . قال: إن مولاى من أهلها ويدعوكم إليه وهو لما به يريد أن يوصيكم، فقاموا إليه، فإذا هو ملقى تحت شجرة قرب عين ماء، فجلسوا حوله، فأحس بهم، فرفع رأسه، وهو لا يكاد يرفعه ضعفاً وأنشأ يقول:

يا غريب الدار عن وطنه ... مغرداً يبكى على شجنه
كلما جد البكاء به ... دبت الأسقام فى بدنه

ثم أغمى عليه طويلاً، وبينما هم جلوس حوله، إذ أقبل طائر فوقع على أعالى الشجرة التى كان تحتها وجعل يغرد، ففتح عينيه وجعل يسمع تغريد الطائر. ثم أنشأ يقول:

ولقد زاد الفؤاد شجًا ... طائر غنى على فننه
شفه ما شفنى فبكى ... كلنا يبكى على سكنه

ثم تنفس نفسًا فاضت نفسه معه فلم يبرحوا عنده حتى غسلوه وكفنوه وتولوا الصلاة عليه ، فلما فرغوا من دفنه سألوا الغلام عنه، فقال: هذا العباس بن الأحنف.

***

ونحن على يقين من أن مثل هذه القصص والأساطير التى تمتلأ بها كتب التراث فى حاجة ماسة للعديد من المراجعات القائمة على البحث والدراسة والدلائل! وقد كان لأستاذنا الراحل الدكتور طه حسين عميد الأدب العربى السبق فى هذا الاتجاه - رغم ما اعتراه من مشاكل وصعاب كادت تقلل من عزمه .. ولقد رأيناها فرصة سانحة عندما تحدثنا عن شعراء أم كلثوم .. هنا وفوق هذه الأوراق .. لكى نعيد النداء مرة أخرى لأجل خلق فن عربى رفيع المستوى خاصة فى الشعر لا يشوبه شائبة! فما أجمل أن تقرأ أدباً بلا أساطير.!

٦ بكر بن النطاح الحنفي

«من شعراء صعاليك العباسيين !»

يرى الكثير من النقاد ومن المؤرخين أن قصيدة «أكذب نفسى» .. والتى شدت بها أم كلثوم للشاعر الصعلوك «بكر النطاح الحنفى» فى عام ١٩٣١ .. تمثل خاتمة المرحلة الأولى من المراحل الفنية لأم كلثوم فى ميدان غناء القصائد.

إذ من بعدها انطلقت كوكب الشرق إلى آفاق مرحلة جديدة شهدت تألقها غير المسبوق فى الميدان نفسه، ولكن مع كلمات شعراء من العصر الحديث سواء فى مصر أو فى غيرها من البلاد العربية والإسلامية، وألحان أكثر عصرية سواء للشيخ زكريا أحمد أو رياض السنباطى .

وقد شهدت المرحلة الأولى تألق رعيل آخر من المؤلفين ومن الملحنين الكبار من أمثال الشيخ أبو العلا محمد والدكتور أحمد صبرى النجريدى ، والذى يعود إليهما الفضل الأكبر فى تدريب صوت أم كلثوم على غناء القصائد باللغة العربية الفصحى.

ولقد سبق لنا الإشارة إلى العديد من هؤلاء الشعراء العرب الذين تعاملت أم كلثوم مع كلماتهم وقصائدهم فى المرحلة نفسها.

وقصيدة «أكذب نفسى» للشاعر العباسى الصعلوك بكر بن النطاح قد سجلتها أم كلثوم على أسطوانة تابعة لشركة أوديون فى عام ١٩٣١ . بعد ما ذاع صيت هذه القصيدة، عندما غنتها أم كلثوم فى حفلاتها العامة سواء على مسرح الأزبكية أو داخل البيوت والمجتمعات الراقية.

وتقول كلمات هذه القصيدة:

أكذب نفسى عنك فى كل ما أرى
وأسمع أذنى منك ما ليس تسمع
فلا كبدى تبلى ولا لك رحمة
ولا منك إقصار ولا فيك مطمع
لقيت أموراً فيك لم ألق مثلها
وأعظم منها فيك ما أتوقع

فـلا تـسـألـيـنـى فـى هـواك زيـادة

فـأيـسـرهُ يـدمـى وأدنـاه يـدمـع

***

واستكمالاً لما نقوم به، وما قمنا به من قبل.. فقد أردنا التأكدمن وجود هذه الأبيات، ومن كلماتها ومن أشعارها، ومدى صحة نسبها إليه.. من أجل ذلك أخذنا كالعادة ننقب فى كل المصادر المروية والمكتوبة، وكل المصادر المعنية بأمور هؤلاء الشعراء حتى عثرنا على حديث شيق عن هذا الشاعر الصعلوك وعن المناسبة التى قال فيها الأبيات السابقة، والتى شدت بها أم كلثوم ، وذلك فى كتاب الأغانى للعلامة الأصفهانى وكذلك فى العديد من الكتب التى لاحظنا أنها أيضاً قد نقلت عن كتاب الأغانى.

ومما لاحظناه من خلال الاطلا ع على هذه المصادر الأدبية والتاريخية أن ابن النطاح لم يجمع هذه الأشعار فى ديوان، بل جاءت كلها فى ثنايا حكاياته التاريخية باعتباره من أشهر الصعاليك الشعراء الذين ملأوا الدنيا صخباً، كما ملأوا كذلك كتب الأولين من المؤرخين والنقاد.

ولقد كتب ابن النطاح الكلمات التى شدت بها أم كلثوم فى محبوبته «رامشنة» التى وقع فى غرامها، والأصفهانى، يحكى لنا تفاصيل هذه الحكاية بقوله : «أخبرنى محمد ابن خلف وكيع ، قال حدثنى محمد بن حمزة العلوى قال: حدثنى أبو غسان رماذ .. قال: حضرت بكر بن النطاح الحنفى فى منزل بعض المغنيين، وكانت له جارية يقال لها «رامشنة» .. فقال فيها بكر بن النطاح:

حـيـتـك بـالـرمـشـى رامـشـنـة ... أحـسـن مـن رامـشـنـة الآسـى

جـاريـة لـم يـقـتـسـر بُـضـعـهـا ... ولـم تـقـم فـى بـيـت نـخـاس

أفـسـدت إنـسـانًـا عـلـى أهـلـه ... يـا مـفـسـد الـنـاس عـلـى الـنـاس

وقال فيها:

أكـذب طـرفـى عـنـك والـطـرف صـادق

وأُسـمـع أذنـى مـنـك مـا لـيـس يُـسـمـع

ولـم أسـكـن الأرض الـتـى تـسـكـنـيـنـهـا

لـكـيـلا يـقـولـوا صـابـر لـيـس بـنـجـزع

فـلا كـبـدى تـبـلـى ولا لـك رحـمـة
ولا عـنـك إقـصـار ولا فـيـك مـطـمـع
لـقـيـت أمـورًا فـيـك لـم ألـق مـثـلـهـا
وأعـظـم مـا فـيـك مـا أتـوقـع
فـلا تـسـألـيـنـى فـى هـواك زيـادة
فـأيـسـره يـجـزى وأدنـاه يُـقـنـع

وبالرجوع مرة أخرى للكلمات التى شدت بها كوكب الشرق أم كلثوم للشاعر بن النطاح وجدنا اختلافات واضحة فى بعض أبيات هذه القصيدة مما استوجب إلقاء الضوء عليها..

وأبرز هذه الاختلافات أن عدد الأبيات التى أنشدها ابن النطاح فى محبوبته «رامشنة» بلغ خمسة أبيات اختارت منهم أم كلثوم أربعة أبيات فقط : البيت الأول والثالث والرابع والخامس . وبذلك نراها قد أهملت البيت الثانى الذى تقول كلماته:

ولـم أسـكـن الأرض الـتـى تـسـكـنـيـنـهـا
لـكـيـلا يـقـولـوا صـابـر لـيـس بـجـزع

كما غيرت أم كلثوم فى كلمات الشطر الأول من البيت الأول بحيث أصبح ما فى هذا الشطر يقول:

"أكذب نفسى عنك فى كل ما أرى"

بدلا من: "أكذب طرفى عنك والطرف صادق"

وفى البيت الرابع غيرت أم كلثوم كلمة «يقنع» واختارت بدلاً منها كلمة «يدمع»! وكلمة «يدمى» بدلاً من «يجزى»

***

وشاعرنا المنوه عنه هنا .. وصاحب هذه القصيدة ، هو بكر بن النطاح الحنفى.. الذى عُرف بأبا وائل، وكان من شعراء العصر العباسى الأول حيث حضر زمن المعتصم بالله، فى أوائل القرن الثالث الهجرى وكان كذلك مشهوراً بأنه زعيم شعراء الصعاليك فى هذا العصر ..كما عُرف أيضًا بأنه كان يمثل الصعاليك التوابين، إذ كان فى صدر حياته صعلوكاً يصيب الطريق ثم عدل عن ذلك .

ورغم ذلك فقد كان بطلاً وفارسًا شجاعًا .. وشهرته فى الشعر فاقت شهرته فى مجال الصعلكة . حيث لم تهتم الروايات التى تحدثت عنه بأمور صعلكته بقدر اهتمامها بأشعاره، ويعتبره العديد من النقاد فى هذا الميدان من الشعراء المجيدين . وقال عنه التبريزى «أنه حسن الشعر جيد التصرف فيه» .

اتصل بكر بن النطاح فى حياته بالعديد من القادة ورجال السياسة العباسين، وكان أول من اتصل بهم هو « يزيد بن مزيد الشيبانى» القائد المشهور فى عهد المأمون والهادى والرشيد، لذلك قربه إليه وضمه إلى جنده، فسجله فى ديوان العطاء وأجرى له راتبا، وأخذ يمدحه لذلك كثيرا مشيرا إلى بطولته حتى افتخر به فخرا آذى الرشيد وأغضبه عليه. مما جعله يختفى تماما من بغداد .. ولم يظهر حتى توفى الرشيد[1] .

***

وواضح من تلك الروايات العديدة التى ذكرها الأصفهانى عن ابن النطاح وأشعاره ، أنه رغم شاعريته المعروفة فقد كان يتكسب من هذا الشعر فى هجاء من لا يدفع له ما يريده من أموال، ولذلك كان يخشاه العديد من أهل زمانه .. كما أورد الأصفهانى العديد من أبيات ابن النطاح دونما يشير إلى وجود ديوان ضم هذه الأشعار .

(١) الشعراء الصعاليك فى العصر العباسى الأول - د. حسين عطوان.

٧ صفي الدين الحلي

«أو الشاب الظريف»

رحلة بحث طويلة شاركنا فيها شاعر كبير وأستاذ جامعي يقول الشعر ومتخصص في تاريخ الشعراء، ولولاهما لما توصلت إلى ما وصلت إليه بخصوص العبارات التالية.

والحكاية ترتبط في الأساس بشاعرين كبيرين أيضاً هما الشاعر صفى الدين الحلىّ والشاب الظريف.. إذ وقع خلط غير متعمد بين كلمات هذين الشاعرين فيما شدت به أم كلثوم بالنسبة لقصيدة «مثل الغزال» .

وعلى الرغم من أن أم كلثوم قد تغنت بهذه الكلمات الجميلة منذ أكثر من ستين عاماً إلا أن أحداً من الباحثين أو الشعراء أو حتى من النقاد لم يلتفت لوجود هذا الخلط الذى أدى إلى مشاكل كثيرة لدرجة أن شاعر كبير ثالث هو «صالح جودت» كان قد وجه نداء من فوق صفحات مجلة «المصور» .. يستحث فيه كل من يعرف معلومات صحيحة عن مؤلف هذه القصيدة أو غيرها من القصائد التى غنتها أم كلثوم من الشعر القديم! أن يدله عليها!

***

ومما جاء في كتاب «أم كلثوم – النصوص الكاملة لجميع أغنياتها» والسابق الإشارة إليه أن أم كلثوم غنت قصيدة «مثل الغزال» فى عام ١٩٢٦ ثم سجلتها على اسطوانة جرامفون فى العام نفسه، كما جاء فى هذا الكتاب أن هذه القصيدة من تأليف شاعر يدعى «صفى الدين الحلبى» !! وكان ذلك هو الخطأ الأول الذى تسبب فى حدوث إرباك كبير لنا أثناء الإعداد لهذه الأوراق .. إذ تبين لنا فيما بعد أنه لا يوجد من الشعراء العرب من يسمى «بصفى الدين الحلبى» ! بل الصحيح أن أسمه «صفى الحدين الحلىّ» وهو من شعراء الدولة الأيوبية، ودولة المماليك.

ولقد أكد لنا ذلك العديد من المصادر المروية على لسان الشاعر أحمد سويلم والدكتور عبد اللطيف عبد الحليم الملقب «بأبى تمام» وأستاذ الأدب والنقد بكلية دار العلوم.

عندئذ بدأت الخطوة التالية فى السياق نفسه للبحث عن معلومات عن صفى الدين الحلى.. وكذلك عن ديوانه الذى نشر به هذه القصيدة!.

وعلى مدى عدة أيام وآلاف الخطوات التى قطعناه حيث توجد دار الكتب عثرنا على

ديوان «الحلى» فأخذنا نبحث فيه عما تغنت به أم كلثوم بلا فائدة!! حيث اكتشفنا أن هذه القصيدة لا توجد فى الديوان .. وبالتالى فهى ليست من تأليف صفى الدين الحلى!!

***

وعلى الفور اتجه البحث ناحية أخرى قاصداً أساتذة الجامعات المعنيون بتاريخ الشعراء العرب وبقصائدهم، وذلك من أجل المساهمة معنا فى البحث عن صاحب قصيدة «مثل الغزال»!

وبعد عدة أيام.. عثر الأستاذ الدكتور عبد اللطيف عبد الحليم على صاحب هذه القصيدة .. وهو «الشاب الظريف» ! .. وعندما أعلمنى بذلك لم أترك فرصة.. بل توجهت إلى دار الكتب من جديد للبحث عن ديوان الشاب الظريف .. والتأكد من وجود هذه الكلمات!

وجاءتنى نسخة الديوان، وهو مطبوع منذ أكثر من ستين عاماً! وقبل نهاية ما به من قصائد ربما بثلاث صفحات فقط .. عثرت على «مثل الغزال نظرة» .. وكانت فقط ثلاثة أبيات قابعة وسط العديد من الأبيات التى سطرها الشاب الظريف فى هذا الديوان وكانت نفسها هى الأبيات التى غنتها أم كلثوم فى عام ١٩٢٦ أيضًا، والتى تقول كلماتها:

مثل الغزال نظرة ولفتة ... من ذا رآها مرة ولا أفتن
أحسن خلق الله خلقًا وفمًا ... إن لم تكن أحق بالحسن فمن
فى ثغرها وخدها وشعرها ... الماء والخضرة والوجه الحسن

***

وكعادة أم كلثوم مع القصائد.. فقد غيرت فى بعض كلمات هذه الأبيات حتى تتوافق مع اللحن المناسب لصوتها ، ففى البيت الأول .. غيرت كلمة «رآها» بدلاً من «رآه» ، وكلمة «مرة» .. بدلاً من كلمة «مقبلا».

وفى البيت الثانى غيرت أم كلثوم كلمة «تكن» بدلاً من كلمة «يكن» . أما البيت الثالث فقد شهد تغييراً كبيراً إذ استبدلت أم كلثوم كلمات الشطر الأول منه بكلمات أخرى جديدة تمامًا .. حيث أصبح هذا الشطر يقول: «فى ثغرها وخدها وشعرها» .. بدلاً من : «فى جسمه وصدغه وشكله» .!!

***

وما دمنا قد ذكرنا شاعرين كبيرين هما صفى الدين الحلى الذى نسبت إليه هذه الأبيات ظلماً، وصاحبها الأصلى هو الشاب الظريف.. فقد رأينا تكريمًا لهما معاً .. إلقاء بعض الأضواء المبهرة على سيرة حياتهما الخاصة والأدبية.

بالنسبة لصفى الدين الحلى وليس الحلبى، فهو شاعر غير مصرى المولد ولا النشأة ولا الحياة.. لكنه اتصل بملوك مصر، ومدحهم .. وهو يدعى وفق الإجماع «عبد العزيز بن سرايا بن على»، ولد بمدينة الحلة إحدى مدن الفرات فى عام ٦٧٧هـ ، ونشأ بها وأجاد الشعر صبيًا .. ثم رحل إلى مصر فى عام ٧٢٦ هـ ، ومدح السلطان بن قلاوون بعدة قصائد .. كان من أشهرها قصيدة عارض فيها المتنبى فى قصيدته التى مطلعها:

بأبى الشموس الجانحات غواربا اللابسات من الحرير جلابيا [١]

***

وأما شاعرنا الثانى: الشاب الظريف.. صاحب الكلمات التى شدت بها أم كلثوم فيدعى محمد شمس الدين بن سليمان عفيف الدين الكوفى التلمسانى .. وقد ولد بالقاهرة فى شهر جمادى الآخر سنة ٦٦١ هـ ، ومنبت أسرته بتلمسان من بلاد الغرب[٢].

وهو ابن الشاعر الصوفى التلمسانى الأصل المصرى الدار عفيف الدين.. ورغم أن الشاب الظريف ولد بمصر وعاش بها فترة طويلة من الزمن مع والده عفيف الدين .. إلا أنه انتقل للعيش فى دمشق وبقى بها حتى مات فى الثامنة والعشرين من عمره[٣].

ولقد لقب بالشاب الظريف لخلاعته ولهو فيه ولرقة أخلاقه وظرفه فى نفسه .. كما عاش طيلة حياته فى دور السلاطين الذين يعرفون فى التاريخ بالمماليك.. كما اتصل كذلك ببعض الأمراء والعظماء من المصريين والشاميين. كقاضى القضاة وبعض أمراءبنى أيوب وآل عبد الظاهر ومدحهم ببعض قصائده. ولقد ولى شاعرنا عمالة الخزانة فى دمشق ولذلك انتقل إليها وعاش بها حقبة طويلة ، ويبدو لذلك أنه لم يل عملاً بالديار المصرية.

ورث الشاب الظريف الأدب والشعر عن والده الشاعر الكبير وبرع فيه حتى تفوق فيه شابًا.. إذ قال عنه ابن تغرى بردى «كان شابًا فاضلاً ظريفاً، وشعره فى غاية الحُسن والجودة وديوان شعره مشهور بأيدى الناس» كما اشتهر ديوانه وتداوله بعض الأدباء فى عصره ونقل عن نسخة بخط يده أشار إليها صلاح الدين الصفدى فى كتبه المختارة . وأكثر شعره فى الغزل الرقيق والوصف.

---

(١) قصة الأدب فى مصر – تأليف د. محمد عبد المنعم خفاجى.

(٢) المصدر السابق .

(٣) الأدب فى العصر المملوكى – د. محمد زغلول سلام – ج(٣).